

الدرس الثالث والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغفر له وللشارح والسامعين :

باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب

فيه حديث الصحيحين في فتنة القبر ((إن المنعم يقول : جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به وأجبنا واتبعنا ، وأن المعذب يقول : سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته)) .

قال رحمه الله تعالى : ((باب التحريض على طلب العلم وكيفية الطلب)) التحريض عرفنا معناه سابقاً وأن المراد به : الحث والترغيب ، والنبي صلى الله عليه وسلم جاء عنه أحاديث كثيرة جداً في التحريض على طلب العلم والحث عليه وبيان فضائله وثماره وآثاره وعوائده الحميدة على طالب العلم في دنياه وأخراه ، وسيأتي طائفة طيبة من الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب . فهذه الترجمة عقدها رحمه الله ليبين فضل طلب العلم الشرعي ومكانته العالية وثماره الطيبة على طالب العلم في الدنيا والآخرة ، وأيضا يبين من خلال هذه الترجمة كيفية الطلب وشيئا من الوسائل التي ينبغي أن يسلكها طالب العلم في طلبه للعلم وسعيه لتحصيله .

وأورد رحمه الله تعالى جملة من الأحاديث في هذا الباب بدأها بالإشارة إلى الحديث الذي في الصحيحين والذي فيه ذكرٌ لنعيم القبر وعذابه وذكرٌ لفتنة القبر ، ((وأن المنعم)) أي الذي يكون من أهل النعيم في القبر يقول عندما يأتيه الملكان ويسأله من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ((يقول : جاءنا بالبينات والهدى فآمنا وأجبنا واتبعنا)) وهذا فيه بيان حال المسلم الذي طلب العلم الشرعي من أبوابه الصحيحة وعمل به وأقرّ وآمن بما جاء به الرسول

عليه الصلاة والسلام وصدّق بذلك واتبع النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به ، ولهذا قال: ((جاءنا بالبينات والهدى)) ؛ جاءنا بالبينات أي جاءنا بالحجج الواضحات والدلائل الظاهرات ، وجاءنا بالهدى أي بدين الله تبارك وتعالى الذي خلق الخلق لأجله وأوجدهم لتحقيقه ، قد قال الله عز وجل في بيان ما يقوم به الرسول عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فهو عليه الصلاة والسلام جاء بالهدى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨] فهو عليه الصلاة والسلام جاء بالبينات أي الدلائل الواضحات والحجج البينات ، وجاء بالهدى جاء بالدين الحق الصحيح الذي بعثه به رب العالمين تبارك وتعالى . وهذه الكلمات التي يقولها المنعم «جاءنا بالبينات والهدى فأمنّا وأجبنا واتبعنا» هذا لو تأملنا يبين لنا حال طالب العلم الناصح في الطلب ، وما هي الخطوات التي يسير عليها ويسلكها حتى يكون من الفائزين في هذا الامتحان عندما يأتي الملكان إليه في قبره ويجلسانه ويسألانه من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فيكون في حياته الدنيا تعلّم وعرف الدين عرف الإسلام ، عرف النبي عليه الصلاة والسلام ، عرف حق الله عز وجل ، عرف البينات ، عرف الهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل هذا لا يأتي إلا بالطلب ؛ بطلب العلم والبحث عنه والسؤال عنه وإعطائه جزء من حياة الإنسان ووقته في تحصيل العلم ونيله .

فهذه أمور لا بد فيها من الطلب ، لا بد فيها من الجلوس بالتعلم والتفقه في دين الله جل وعلا ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إنما العلم بالتعلم)) أي أنه لا بد من بذل وقت وبذل جهد وسعي وجدّ واجتهاد كي ينال الإنسان العلم ويحصل شيئا منه ، لا أن يبقى في بيته وفي داره وعلى فراشه وينتظر أن يأتيه العلم في فراشه وفي مكانه دون أن يذهب للبحث عنه ولطلبه ، ولهذا سيأتي معنا عند المصنف قول النبي صلى الله عليه وسلم : ((من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة)) لا بد من سلوك طريق طلب العلم وتحصيله ولا بد من الصبر على ذلك .

فإذا هنا قوله «جاءنا بالبينات والهدى» لو تتأمل من الذي يقول هذه الكلمة؟ إلا الذي عرف البينات وعرف الهدى وعرف الحق وعرف ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكل هذه المعرفة لا تكون إلا بطلب العلم ، لا تكون إلا بالجلوس للتعلم والتفقه في دين الله عز وجل ومعرفة ما جاء به صلوات الله وسلامه عليه ؛ وبهذا يظهر لك وجه إيراد المصنف رحمه الله لهذا الحديث في هذه الترجمة بل بدؤه ؛ منبهًا هذا التنبيه العظيم إلى أن طلبك للعلم في حياتك الدنيا له ثمرة عظيمة عليك في الحياة نفسها وبعد الممات ، عندما تُدرج في قبرك ويهال عليك التراب وتنقطع من هذه الحياة الدنيا ويأتيك ملكان ويجلسانك في قبرك ويسألانك هنا تأتي قيمة العلم الشرعي .

وهنا ليس الحديث عن العلم الذي هو فرض كفائي ، وإنما الكلام على العلم الذي هو فرض عين مطلوب من كل مسلم وواجب على كل مسلم وهو فريضة على كل مسلم ؛ واجبات الدين وفرائض الإسلام ما لا يسع أي أحد

من المكلفين جهله ، فهذه أمور يجب أن يغتنم الإنسان وجوده في هذه الحياة الدنيا في أن يحصّله وأن يتعلمه وأن يعرفه لأنه سيُسأل عنه في قبره ؛ فتأتي هناك ثمرة طلب العلم الشرعي وثمره العناية به والاهتمام .

قال: ((فيقول جاءنا بالبينات والهدى فآمنّا وأجبنا واتبعنا)) في هذا الحديث دلالة ظاهرة على البدء بالعلم قبل القول والعمل ، لأن المنعم يقول: «جاءنا بالبينات والهدى» هذا هو العلم ؛ معرفة ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وتعلمه . قال : «فآمنّا وأجبنا واتبعنا» وهذا هو الانقياد والامتثال والعمل . فأولا العلم ثم بعد ذلك الانقياد والامتثال والاتباع . وأيضا قال هنا «فآمنّا» عطف بحرف الفاء التي تفيد التعقيب ، فآمنّا يعني هذا يفيد أنهم ما أن سمعوا وعرفوا هذه البينات إلا وأقبلوا عليها دون تردد ودون تمّنّع ودون إيباء ، بل أقبلوا عليها مؤمنين غير شاكين ولا مرتابين ، وأيضا أقبلوا عليها عاملين غير مترددين ولا متشبطين ولا متقاعسين .

قال: ((فآمنّا وأجبنا واتبعنا)) آمنّا أي بالرسول عليه الصلاة والسلام وبما جاء به وبأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى وبما دعانا إلى الإيمان به آمنّا بذلك كله ، وأجبنا : أي أجبنا له عليه الصلاة والسلام فيما دعانا إليه ، دعانا إلى الشهادة بالوحدانية الشهادة له بالرسالة ، دعانا إلى امتثال الأوامر اجتناب النواهي فكان شأننا معه هو الإجابة قد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] . قال: ((واتبعنا)) أي واتبعناه صلى الله عليه وسلم فيما يدعو إليه وفيما يأمر به .

وهذه الكلمات التي يقولها المنعم هي أصول السعادة الدنيوية والدنيوية ، أصول السعادة في الدنيا والآخرة اجتمعت في هذه الكلمات العظيمة ، وإذا وُجدت هذه المعاني العظام في العبد ؛ معرفة ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من البينات والهدى ، مع الإيمان والإجابة والاتباع هذه أصول السعادة ، بل لا سعادة إلا بذلك ولا نعيم إلا بذلك ولا نجاة من عذاب الله وعقابه وسخطه سبحانه وتعالى إلا بذلك .

قال: ((وأن المعذّب -أجارنا الله إياكم- يقول : سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)) هل هذا عنده علم ؟ عنده فقه ؟ عنده فهم لدين الله ؟ أبداً ، وإنما يقول سمعت الناس يقولون شيئا فقلته أي وأنا لا أفهم ولا أعرف ولا أدري ولم أتعلم ولم أعط العلم شيئا من حياتي أو من وقتي أو اهتمامي ((سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)) ؛ ولهذا جاء في بعض الروايات أن الملك يقول له : ((لا تليت ولا دريت)) أي أنه لم يتعلم ولم يتفقه ولم يتلو ولم يقرأ ((لا دريت ولا تليت)) يعني لا حصل عندك التلاوة والقراءة والعمل الذي هو الاتباع ، ولا أيضا دريت ؛ فكل ذلك يبين لنا أثر العلم في نجاة الإنسان وسعادته في دنياه وأخراه .

قال رحمه الله تعالى :

وفيهما عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) وهذا أيضاً فيه مكانة العلم العالية الرفيعة ، وأن من مكانته العالية أن توفيق الله سبحانه وتعالى لعبده بأن يكون طالب علمٍ هذا من إرادة الخير به ، من إرادة الله تبارك وتعالى الخير بعبدته أن يفقهه في الدين: أي أن يوفقه سبحانه وتعالى إلى التفقه في الدين .

وقوله في الحديث ((يفقهه)) أي الله عز وجل ((يفقهه في الدين)) فيه أن التوفيق لطلب العلم وتحصيله وفهمه ومعرفة مسأله وضبطها كل ذلك منة الله على عبده ، فهو الموفق وهو المعين ، وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ، لأن زيادة العلم وحصول العلم كل ذلك منة الله جل وعلا على عبده ، كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول كل يوم كما في حديث أم سلمة في السنن وغيرها ((كان كل يوم يقول بعد صلاة الصبح: اللهم إني أسألك علماً نافعا ورزقا طيباً وعملاً متقبلاً)) فالعلم وحصوله والزيادة منه كل ذلك منة الله جل وعلا على عبده وتوفيقه سبحانه وتعالى .

قال: ((من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)) أي يعينه ويشرح صدره ويسر له أبواب العلم ومجالس العلم والرغبة فيها والحرص عليها ، ويسر له حفظ العلم وضبطه ؛ فكل ذلك منة الله ، ومن إرادة الله سبحانه وتعالى الخير بالعبد أن تكون نفسه مقبلة على العلم رغبة فيه محبة له حريصة على مجالسه مغتبطة بكتب العلم ومسائل العلم ومجالسة أهل العلم ؛ فهذا كله من إرادة الله تبارك وتعالى الخير بعبدته . أما إذا كان الإنسان أجارنا الله منقبضة نفسه وكامشة ونافرة لا يرغب في مجالس العلم ولا يحب الجلوس فيها وإذا رآها انقبض ولا يرغب في قراءة العلم ولا يرغب في قراءة كتب العلم ويستوحش منها هذا ليس من إرادة الخير به ، ولهذا قال العلماء في شرح الحديث : مفهوم المخالفة لهذا الحديث أن من لم يفقه في الدين أن هذا من علامة عدم إرادة الخير به ، مما يدل على خطورة مضي الإنسان في الحياة غافلاً عن العلم معرضاً عنه غير مبالي به ، كيف يعرف الإنسان صلاته؟ كيف يعرف صيامه؟ كيف يعرف التوحيد الذي خلقه الله تبارك وتعالى لأجله؟ كيف يعرف المحرمات التي أمر باجتنابها والبعد عنها إلا بالعلم ، العلم هو الأساس الذي يضيء للإنسان طريقه ، والله جل وعلا سمى الوحي نورا ، لأن بالوحي يستضيء الإنسان له الطريق ويعرف الجادة ويستبين له السبيل . فسلوك طريق العلم والعناية به هذا من إرادة الله تبارك وتعالى الخير بعبدته ؛ أن يحب لقلبه العلم ومجالسة العلماء ومذاكرة مسائل العلم وأن يعطي العلم حظاً من وقته ، من الناس من يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة والأربع بل والسنة والستتان وهو لا يعطي العلم حظاً من وقته ، بل بعض الناس ليس له حظ من سماع العلم إلا في خطبة الجمعة ! وأيضاً يخرج من خطبة الجمعة وهو غافل عنها إذا قيل له ما هو موضوع الخطبة اليوم؟ لا يدري فضلاً عن مضامينها ، لا ينتبه ولا يهتم ، مع أن من نعم الله عز وجل العظيمة علينا هذه الخطبة الجامعة التي تتكرر على مسامع الناس كل جمعة يتفقهون في الدين

ويتعلمون ويوعظون ويذكرون ، وحضورها واجب وفريضة على كل مسلم . فالشاهد أن من الخير للعبد أن يوفق لطلب العلم .

وهنا إذا قرأت هذا الحديث تستفيد فائدتين أنت بحاجة إليهما :

❖ الفائدة الأولى: أن تقبل على الله تدعوه أن يوفقك ؛ لأنه هنا قال ((يفقهه)) فتقبل على الله أن يفقهك أن يوفقك لأن هذا أمرٌ بيد الله عز وجل ، ولا يمكن أن يناله أي إنسان إلا إذا يسره الله لك وشرح صدره له . فتخرج بهذه الفائدة ((يفقهه)) يا رب فقهي ، هذه فائدة عظيمة من الحديث النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((من يرد الله به خيرا يفقهه)) إذا الأمر بيد الله فنخرج بثمرة وهي سؤال الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في الدين نتوجه إليه وندعوه ويتكرر منا الطلب والسؤال ، وهو سبحانه وتعالى لا يرد عبدا دعاه ولا يخيب مؤمنا ناجاه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] . فإذا من الثمار العظيمة الجليلة الكبيرة المستفادة من هذا الحديث أن تقبل على الله إقبالا صادقا أن يفقهك في الدين وأن يشرح صدرك لمجالس العلم أن يعينك ، وأن تحافظ على الدعوة النبوية المباركة التي كان يدعو بها كل يوم بعد صلاة الصبح «اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا» ، وقد بدأ النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الدعوة بسؤال الله هذه الأمور الثلاث بدأ بالعلم قبل الرزق وقبل العمل ، وهذا فيه فائدة ألا وهي: أن العلم مقدم وبه يبدئ ، ولو لم يكن عند العبد علم كيف يميز بين رزق طيب وخبيث! وكيف يميز بين عمل صالح أو طالح! فالذي يدخل السوق بلا علم أو يدخل المسجد بلا علم كيف يميز بين صالح العمل وغير صالحه وبين طيب الرزق وغير طيبه!! لا بد من العلم ، العلم يحتاج إليه في المساجد وفي أماكن العبادة والطاعة ويحتاج إليه أيضا في طلب الرزق وأمور المعاش حتى يكون الإنسان في حياته وفي معاملاته وفي عباداته وفي أموره كلها على بصيرة، ولهذا بدأ به قال: «اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا» .

❖ الفائدة الثانية من حديث معاوية رضي الله عنه: أن تجاهد نفسك على طلب العلم وأن يكون لك حظ منه في أيامك ، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . ولنتنبه أن الترجمة عند المصنف تتناول فضل العلم وتتناول كيفية طلب العلم ، وهذه الأحاديث التي يسوقها كما أن فيها تنبيهًا على الفضائل فإن فيها أيضا تنبيهًا على كيفية الطلب .

قال رحمه الله تعالى :

وفيهما عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)) .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث الذي ضرب فيه النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً بليغاً وعظيماً لما بعثه الله تبارك وتعالى به من الهدى والخير ، وأيضاً بياناً لحال الناس وواقعهم مع هذا الخير والهدى الذي بُعث به صلوات الله وسلامه عليه ؛ فضرب مثلاً بديعاً يبين هذه الحقيقة ويجلي هذا الأمر . ومن شأن الأمثال أنها تجعل الأمر المعنوي بمثابة الأمر المحسوس المشاهد؛ فتقرب المعاني وتتضح وتظهر وتنجلي . والقرآن والسنة فيهما أمثال كثيرة هذا الغرض منها .

فهنا ضرب عليه الصلاة والسلام مثلاً يبين من خلاله ما جاء به من الخير والهدى وواقع الناس مع هذا الخير ؛ فيقول عليه الصلاة والسلام : ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير)) يعني كمثل المطر الغزير الكثير ؛ وهذا فيه أن ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الوحي والعلم والهدى مثل المطر ، وهناك مشابهة بين الوحي والغيث ؛ الوحي: سقيا للقلوب لا تحيا إلا به ، والغيث: سقيا للأرض والنبات لا تحيا إلا به ، ففيه مشابهة أن كلا من الغيثين الغيث الذي هو الوحي والغيث الذي هو المطر بهما الحياة ، الحياة لا تكون إلا بهما ، حياة الأرض والزروع والنبات لا تكون إلا بالمطر ، وحياة القلوب والأرواح لا تكون إلا بالوحي ، ولهذا قال الله سبحانه وتعالى في سورة الحديد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذا هو المثل ؛ هذا المثل الذي ذُكر هنا في هذا الحديث جاء في هذه الآية الكريمة . لما ذكر الله عز وجل الوحي ودعا عباده أن تخشع قلوبهم لسماعه حذر من أن تكون حالهم كحال أقوام طال عليهم الأمد أي بعد العهد عندهم عن الوحي والرسالات وما جاء به الرسل من الحق والخير والعلم والهدى فقست قلوبهم ، القلب عندما يبعد عن الوحي يقسو ثم يذبل ثم يموت ، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَاحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي أحييناه بالوحي ، مر معنا الآية الكريمة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] يحْيِيكُمْ: أي بالوحي ، تحيا القلوب بالوحي .

فلما ذكر من بُعد عهدهم بالوحي وطال أمدهم قال: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، القلب عندما يبعد عن الوحي يقسو ويذبل ويضعف إلى أن يموت ﴿وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ . قال بعد ذلك ضارباً مثلاً عظيماً يبين لنا هذا الأمر ﴿اعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هذا فيه آية وفيه أيضاً مثل وعظة وعبرة؛ كما أنه تبارك وتعالى يحيي الأرض الهامدة الميتة بعد موتها إذا أنزل عليها الغيث بالمطر فكذلك القلوب الميتة إذا جاءها الوحي والهدى والبيّنات دبّت فيها الحياة حصلت لها الحياة ، بدون الوحي تكون القلوب ميتة ولا تحيا إلا به .

ولهذا ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً للوحي الذي بعث به جعل مثل ذلك الغيث الذي تحيا به الزروع والنبات ؛ وهذا فيه دعوة للتفكير . أنت عندما ترى أرضاً يابسة ثم تراها بعد حين وقد نزل المطر فخرجت الزروع البهيجة والنباتات المتنوعة والزهور الجميلة والرائحة الطيبة أصبحت تبهج قلبك عندما تراها بعد أن كانت يابسة ؛ هذا مثل لك تعرف من خلاله قيمة العلم والوحي ، كما أن هذه الأرض حصلت لها هذه الحياة بالمطر الذي أنزله الله عليها فكذلك القلوب لا تحصل لها حياتها إلا بالوحي ، ولأجل هذا الشبه بين الوحي والغيث وبين الأرض والنبات عدد من أهل العلم سمو مصنفاتهم التي ألفوها في العلم بأسماء تفيد هذا المعنى : «بستان العارفين» ، «الروض المربع» ، «الرياض الناضرة» ، «حدائق الأزهار» ، أشياء كثيرة تجدها من كتب أهل العلم مؤلفة بهذه الأسماء لماذا؟ لأن العلم بستان ، العلم حديقة ، العلم روضة مباركة ، وكلما كان حظ الإنسان من العلم أكبر ونصيبه منه أوفر زاد حجم حديقته وزاد أيضاً حجم ثمارها وآثارها . الله عز وجل قال في القرآن الكريم ﴿الْم تَرَكَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] ؛ فهذه أمثال عظيمة جليلة مباركة تبين لنا هذا الأمر وتجليه ، ونبينا عليه الصلاة والسلام عندما ضرب لنا هذا المثل العظيم ضربه لنعرف من خلاله ونستظهر من خلاله هذه الحقيقة في مكانة العلم العالية الرفيعة وأيضاً ميسر حاجة القلوب إلى العلم وتحصيله .

قال: ((مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير)) الغيث الكثير يختلف عن الغيث القليل من جهة أنه يغطي جميع الحاجات ؛ الأرض تروى والماشية تروى والزروع أيضاً تأخذ نصيبها وكل يأخذ حظه ونصيبه عندما يكون الغيث كثيراً ، أما إذا كان الغيث قليلاً فتفتوت كثير من الحاجات ؛ وهذا فيه تنبيه إلى أن الوحي الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم غطى جميع الجوانب وأتى على جميع الحاجات والمصالح ، فليس هناك مصلحة من المصالح ولا حاجة من الحاجيات إلا وقد عمّه هذا الغيث الذي هو الوحي الذي جاء به الرسول عليه

الصلاة والسلام . فقولهُ «الكثير» فيه تنبيه على كمال الدين وشموله لجميع جوانب الحياة وجميع ما يحتاجه الإنسان في عبادته لله وتقريبه إليه سبحانه وتعالى .

ثم بيّن بعد ذلك حال الناس مع هذا الوحي قال: ((أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة))؛ أصاب أرضاً: أي أصاب أنواعاً من الأراضي أو عددًا من الأراضي .

((أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير)) هذا قسم ؛ قسمٌ من الأراضي قبل الماء يشرب من الماء ويرتوي من الماء ، ولهذا أيضاً تظهر الثمرة ثمرة قبول الماء والارتواء منه وهو أنها أنبت العشب الكثير أرض طيبة . ولعل هذا يذكرنا بالسلام الذي نقله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع محمد عليه الصلاة والسلام عندما لقيه صلى الله عليه وسلم عندما عُرج به إلى السماء ، قال إبراهيم الخليل لنبينا صلى الله عليه وسلم : ((أبلغ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة قيعان ، وأنها عذبة الماء طيبة التربة ، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)) ، فالأرض الطيبة تقبل الماء وقبولها للماء ينشأ عنه نبات العشب وتنوع الثمر وتعدد الخيرات والبركات . فهذا القسم الأول .

قال ((فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير)) ؛ لاحظ أيضاً أمر مرتبط بآخر وهو أن نبات العشب الكثير متوقف على قبول الماء ؛ وهذا أيضاً تستفيد منه فائدة: أن حصول الهدى والخير الكثير للبعد متوقف على حصول العلم وقبوله ؛ أن يقبل العلم وأن يأخذ حظه منه ونصيبه ، كما أن النبات الكثير والخير الكثير الذي يحصل للأراضي منبني على قبول الماء فكذلك حصول الهدى والخير متوقف على حصول العلم ، العلم بالوحي الذي هو حياة القلوب، قال: ((قبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير)) .

((وكانت منها أجادب)) أي أراضي جدباء الأرض الجدباء لا تُنبِت لكنها تمسك الماء ، ((وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا)) أمسكت الماء أي حفظته لكنها أرض جدباء لا تستفيد هي من الماء ولا تنتفع به ؛ وهذا حال من يحفظ العلم وينقله ولا يكون له حظ منه ، فيستفيد منه غيره ولا يستفيد هو منه ، ولهذا أحد التابعين كان يقول في دعائه : «اللهم لا تجعل غيري أسعد مني بما علمتني ، ولا تجعلني لغيري عبرة» ، متى يكون غيرك أسعد منك بما علمك الله؟ إذا كان أخذ العلم الذي بيّنته له ووضحته له مأخذ الجد والاهتمام والعمل وأنت لم تأخذه مأخذ الجد والاهتمام والعمل ؛ فيكون غيرك أسعد بالعلم الذي معك منك ، فيعرفون أموراً ويتعلمون أموراً يعملون بها وينتفعون بها ويسعدون بها ويكون الذي علّمهم وبيّن لهم حارماً نفسه من هذا الخير ، والأرض عندما تكون أرض جدباء تمسك الماء تأتي الماشية وتشرب ويأتي الناس ويروّون منها ويأخذون منها لمزارعهم ويستفيد الناس ، لكن الأرض بنفسها وبذاتها التي عليها هذا الماء لا تستفيد منه شيئاً ، ولهذا ينتهي الماء ولا ترى في الأرض الجدباء نباتة واحدة خضراء! لأنها أرض جدباء لا تنبت .

قال: ((وأصاب منها طائفة أخرى)) أي طائفة من الأراضي أخرى ((إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً)) الماء لا تحفظه ولا أيضا ينبت فيها نباتاً ((لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً)) ثم وضع النبي عليه الصلاة والسلام مدلول هذا المثل قال : ((فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به)) الذي يفقه الدين وينتفع بما بعث الله سبحانه وتعالى به ؛ هذا مثله مثل الأرض الطيبة التي قبلت الماء وأنبت الكلاً والعشب الكثير .

قال: ((ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)) سواء فرط في بيان مقصود العلم ، يقول علي رضي الله عنه : «يهتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل» ، مقصود العلم العمل ، أو فرط في العلم والعمل معا .

فهذا مثال عظيم مبارك ضربه النبي عليه الصلاة والسلام لأمته مبينا من خلاله حقيقة الوحي الذي بعثه الله تبارك وتعالى به ، وأيضا بين من خلاله واقع الناس مع هذا الوحي من حيث القبول والرد .

قال رحمه الله تعالى :

ولهما عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)) .

ثم ذكر رحمه الله هذا الحديث حديث عائشة وكان مر معنا سابقا عندما أورد المصنف رحمه الله تعالى قول الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] فقال عليه الصلاة والسلام : ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه)) أي ما تشابه من أي الكتاب ((فأولئك الذين سمي الله)) أي سماهم الزائعين ووصفهم بالزيع ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ، ((فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم)) أي احذروا من مجالستهم واحذروا من سماع كلامهم واحذروا من أحاديثهم لأنهم يضررون بمن يجالسونه ؛ حيث يوقعون في الشبهات ، ويدخلونه في الشكوك ، ويلبسون عليهم أمور ويلبسون عليه الحقائق ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ((فاحذروهم)) : احذروهم من حيث المجالسة ، من حيث سماع الحديث الذي يقولونه، من حيث قراءة الكتب التي يكتبونها ، كل ذلك يُحذر إذا كان حال الإنسان اتباع المتشابه من أي القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

أما الراسخين في العلم فشأنهم في هذا الباب آخر ؛ قال الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] المحكم والمتشابه كله من عند الله ولا نضرب كتاب الله ببعضه ببعض ، وإذا اشتبه علينا آية من القرآن أو

آيات من القرآن أعدناها للمحكم وأرجعناها إليه ، ولهذا وصف الله سبحانه وتعالى الآيات المحكمات بأنها أم الكتاب ، وأم الشيء أصله الذي إليه يرجع ، فالآيات المحكمات هي أم الكتاب أي هي الأصل الذي يُرجع إليه إذا اشتبه عليك شيء من الآيات تعيده إلى الآيات المحكمات فينجلي الأمر ، أما أهل الزيف فإنهم يتبعون المتشابه من آي القرآن ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله .

فيكون هذا الحديث ساقه المصنف هنا ليبين من خلاله جانب يتعلق بطلب العلم ، وأن العلم لا يؤخذ عن كل أحد ، من يريد أن يحصل علما شرعيا صحيحا يلقي الله عز وجل به ويسعد فيه في دنياه وآخره لا يذهب إلى الزائغين الذين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم علامتهم هنا ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)) فلا يؤخذ العلم عن كل متكلم ، وإنما يؤخذ عن أهل العلم الذين بنوا علمهم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، يؤخذ عن أهل البصيرة في دين الله تبارك وتعالى ، لا أن يؤخذ عن كل متكلم .

ولما أصبح الناس يأخذون العلم عن كل متكلم دخلوا في متاهات ودخلوا في شكوك وفي شبهات والتبست عليهم الأمور ومرضت القلوب بالوساوس والأسقام ، ولا سيما في زماننا هذا؛ الزمن الذي كثرت فيه وسائل الاتصال ووسائل النشر والفضائيات والقنوات والشبكة العنكبوتية الانترنت ، الوسائل كثرت وأصبح كثير من الناس لا يبالي عمن أخذ ويسمع لكل متكلم ! هذا من أسباب مرض القلوب ، عبد الله بن المبارك رحمه الله من علماء التابعين دخل عليه رجل من أهل البدع وقال أريد أن أقرأ عليك آية من كتاب الله قال: «أخرجوه عني» ف قيل له لماذا ؟ قال : «خشيت أن يطرح في قلبي شبهة فتجلجل في صدري حتى أموت» يعني تتردد في قلبي إلى أن أموت ، الشبه تضر الإنسان مضرة بليغة جدا . ولهذا يحتاج طالب العلم في طلبه للعلم أن يبحث عن العلماء الأمناء الناصحين الذين لهم فقه وبصيرة في دين الله ويلزمهم ويتلقى عليهم ويأخذ عنهم ، وإذا رأى الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فهؤلاء يحذرهم لتحذير النبي صلى الله عليه وسلم منهم . فهذا الحديث يتعلق بكيفية الطلب .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .